

تحيمة الشتاء

للأستاذ عباس محمود العقاد



الحرية والأمان هما تصاري أمل الانسان

وكون الانسان آمناً في سربه حراً في عمله ورأيه هو المطلب
الذي لا يتخطاه إلا وهو ظالم نفسه وظالم غيره ، إلا أن تكون
سيادة على الآخرين برضى منهم وشهادة له بالاستحقاق ، وتلك
غاية لا يطمح إليها كل إنسان

والحرية من الطبيعة موسم ، هو الصيف

وللأمان من الطبيعة موسم ، هو الشتاء

فبركة الصيف هي الطلاقة ، وبركة الشتاء هي الطمأنينة ،
وهذا إذا سلحت الأحوال ... فأما إذا فسدت فلا بركة في صيف
ولا شتاء



إذا لاح الصيف خرج الناس إلى المنازه ، وكرهوا الحدود
والقيود ، فلا سفوف ولا أسوار ، ولا عطاء ولا دنار ، وإزاء الحرية
كأنما الانسان نفس من الهواء ، لا يريد إلا نفساً من الهواء
وإذا لاح الشتاء فالرياح تزجر ، والسما تظفر ، ومن فوقنا
حجاب ومن ورائنا حجاب ، ولا سرور إلا أن تسكن إلى
الف الوثير بين الجدران

وهكذا تتمثل في الطبيعة غاية مطالب الانسان : الحرية والأمان
والناس يزعمون أن البركة كلها في الربيع ، وأنه موسم الزمن
والفاكهة ، ومشهد الحب والجمال ، ومعرض المدينة والريف . فهل
بقيت للشتاء بقية بهذه المحاسن والخيرات ، وبمد يقظة النفس
ويقظة الدنيا ؟

والناس لا ينصفون ، أو لعلمهم ينصفون وينسون . نمد
الربيع يبقى الشمور بالريبع ، ومن أوفى نصيباً من هذا الشمور ؟
أهل الربيع أو أهل الشتاء ؟ الذين يجدون الربيع سهلاً غير مرغوب ،
أو الذين يجدون شتاءً صعباً بعد ارتقاب واشتياق ؟

ما عرف الربيع أناس كالذين اختبروا تسرة الشتاء ، فالشمس
ضيف تقيل في بلاد الصيف القاتظ ، وطلمة جميلة في بلاد الشتاء

الغارس ؛ والزهرة فتاة مبتذلة من فتيات الطريق عند من يشهدونها
في كل يوم وفي كل مكان ، وهي عروس خفيرة و « رسولة »
مبشرة عند من يشهدونها آتية بعد آتية ، ومقبلة مع الخير والحرية
ومحاسن الأرض والسماء

أحكنا وحسب ؟

كلا . بل للشتاء أثر في تقويم الجمال غير هذا الأثر في تمريرنا
بقيمة الربيع

للشتاء أثر في أمم الشمال نلسه فيما رزقته من حصافة وخيال ،
فهو الذي علمنا الشمر والفن ، وهو الذي علمنا العمل والصناعة ،
وهو الذي علم أقوامنا أن يطلبوا شيئاً فوق الأمان والحرية ، ونعنى
به سيادتهم على الأمم التي جاءتهم حرية الطبيعة بغير عناء

تخييل رجل للشمال الثلج والريح نصف ، والبرق يخطف ،
والرعد يقصف ، والسما لا تشمس فيها ولا قر ، والأرض لا زهر
فيها ولا ثمر ، وللنفس لا ترى لها مدى تمتد فيه إلا أن تنوب
إلى سربتها وتنظف في طوبتها ، وتخلق الصور وتناجي الأحلام
وتأنس بالطواظر والأشجان

وتخييل هذا الرجل منفرداً في كوخ منفرد ، ولا يد من
انفراد في ساعة من الساعات وفي أمد من الآماد

ألا ترى أنه خليق أن يمر عالم السريرة بمخلائق الخيال ،
وأحلام الشوق والجمال ؟

ثم تخييل قوم هذا الرجل سنة بعد سنة وجيلاً بعد جيل ،
وكل سنة تضيف إلى قدرتهم على كفاح الشتاء قدرة جديدة ،
وإلى حيلهم في دفاع للبرد حيلة مفيدة ، وإلى عزيمتهم في درء
السيول والأمطار عزيمة رشيدة . فكيف ترام يكونون بعد مائة
شتاء وبمد ألف عام ، وبمد مالا عداد له من أجيال وسلالات ؟
ثم نل أن الأعصاب هي خزانة الأخلاق الموروثة والقوة
النفسية المذخورة ، فإذا تكون الأعصاب التي تفتلت على هذا
الجلد وهذا الجليد ؟ وماذا تكون الطاقة فيها على استيعاب الشعور
واختزان الأحاسيس وتصوير الأخيلة والأشكال ؟

ففي الشتاء تربية للخيال ، وتربية لوعي السريرة ، وتربية
للأعصاب وتربية للأخلاق ، وفي كل أولئك استزادة من نصيب
للشمور ، ونصيب للنهم ، ونصيب للمزعة ، ونصيب الخلق والابداع

رجال التربية والتعليم في وزارة المعارف للدكتور زكي مبارك

الذي يقرأ الجرائد المصرية يتوهم أن وزارة المعارف عبارة عن بنائة نسيحة الأرجاء ، يجلس فيها الموظفون هادئين وادعين يتبادلون التحيات والسجائر والشاي والزججيبيل وإنما يكثر اللفظ حول وزارة المعارف لأن موقعها بين سائر الوزارات، يشبه موقع كلية الآداب بين سائر الكليات. فوزارة المعارف تهتم بتعميد الناس على فصاحة الكلام فيكثر حولها الكلام الفصيح، بالنقد والتجريح؛ وكلية الآداب تحرص على أن تتفلسف فيكثر في تقديما النطلسفون ، ولا يظلمك من برد إليك بمض ما تنفق !

والحق أن وزارة المعارف في هذه الأعوام لا تعرف الهدوء، فهي تار تستمر في الصباح والمساء ومن كان في ريب من ذلك فليرز مكانب الوكلاء والمراقبين والمفتشين ، فإن فعل قسيمرف أن في القاهرة مكانا يشبه برج بابل في أساطير الأولين

يستطيع من يهيمه الوقوف على مصادر الحيوية في وزارة المعارف أن يزور أى مكتب من تلك المكاتب ليوقن بأن الجدد الصريح هو أساس العمل في تلك العمار الفضيحاء احضر إن شئت إلى تلك الوزارة وفي يدك قلم وقرطاس لتدون ما تسمع من الجدل حول المذاهب التعلیمیة ، ولتدون ملاحظاتك الخاصة على مذاهب أولئك للقوم في الحياة ، وإنى لموقن بأنك ستخرج من ذلك بحصول نفيس

ويحسن ألا تمر على مكتب وكيل الوزارة أو مكتب الوكيل المساعد ، فإن الاستفادة من هذين المكتبين لا تضمن إلا أن حرف مرعة الكهرباء في إنجاز الأعمال ويغلب على اللظن أن الرجل الذى اسمه محمد للمشارى يملك شيئاً من مواهب الشعراء ، فسرعته في تصوية المشكلات ليست إلا ضرباً من أعمال الشياطين

ومن ثم يأخذ القوم من الربيع فوق ما يعطيه أهله المرضين عنه الجاهلين بقدره ، لتناظرين إليه عن حرص كأنه زينة نظر في ساعة سفوا أو ليلة سمر ، فلا أعماق له وراء ذلك ولا أسرار حتى أن الشتاء قد يفرض في قوته وقسوته حتى لتتطل فيه كل حيلة الانسان فلا يبقى له غير حيلة الحيوان : جلد دب سلوخ ، وإبواء إلى كوخ، كأنه كهف، أو كهف كأنه كوخ، وهكذا شتاء القبائل الحافين بقطب الشمال

وإن الصيف ليفرض في طلاقته حتى تنقلب إلى مطاردة كأنها الملاحقة بالسياط الكاوية، فتبطل فيه كل حيلة الانسان، ولا يبقى له غير حيلة الحيوان : بركة ماء ، أو ظلال غابة غيباء، وكذلك سيف خط الاستواء ولا بركة في هذا ولا في ذلك ، وإنما البركة فيما لم يجاوز الحدين من هذين الموسمين

وبعد فنحن نذكر بركات البرد والحر ، فهلا ذكرنا أناساً لا يجيدون البركة في أوان ، ولا في مكان ؟ يقول حكيمنا :

لقد جاءنا هذا الشتاء ونحن فقير معرى أو أمير مدوج وقد برزق المجدود أقوات أمة وبجرم قوتنا واحد وهو أحوج هذا الواحد أولى بذكر الألف ، لأنه واحد يجتمع منه ألاف ، ولن ينسأه في مسهل الشتاء إلا مخلوق يستحق النسيان ، بل يستحق الذكر بالمسبة إن كانت قواين أبناء آدم لا تذكره بالزجر وللقاب

ما تميت لسر عملا من أعمال الأمم التي هدمت الديمقراطية إلا إغاثة للشتاء التي يخرج كبراء الألمان لجمعها من الخاصة والعامية في العرذات والأسواق ؛ ذلك عمل مجيد نحن به أولى ، ونحن إليه أحوج ، ونحن عليه أقدر، فيما يبدو لنا من تفاوت بين رضاء بلادنا ورضناك البلاد الأخرى

فاذا ألمنا أن نمين المحتاجين منا إلى معونة الشتاء فقد حق لنا أن نسبع على شتائنا صفة الأمان الشامل ، وأن يشتمل علينا جميعاً راضين آمنين ... ورتجو أن نلهم هذه البركة فما فيها مشقة على قادرين ولا أشقاء قادرين

وكل شئ تقال فيه كلمة نناء ، حتى للشتاء

هباس محمد العقاد